في كل ليلة حكاية

١٤

على أي جنب كان في الله مصرعي

الدكتور

محمد عمر الحاجي

رسوم : إياد عيساوي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

عَـادَتْ (أَسمـاءُ) مـن دَوْرَةِ تَحفيـظِ القُـرآنِ الكَريمِ ، فَالتقَتْ بِأَخِيْهَا المُهندِس (أَحمد) ، وَبعدَ التَّسليمِ سَألتهُ عَن أُمِّها ، فقالَ لَها: وَمالكَ بِهَا؟

قَالَتْ: لأنَّ عِندِي وَظِيفَةً لِيومِ غَدٍ.

قَالَ (أَحْمَدُ): وَعن أيِّ شيءٍ تَدورُ الوَظِيفَةُ المُلِحَّةُ؟

قَالَتْ: طُلِبَ مِنَّا كتابةُ مَوضوعٍ عن الفِدَاءِ والتَّضحيةِ ، مَع مِثَالٍ مِنَ التَّاريخِ ، والأفضل أَنْ يَكونَ مِنَ التَّارِيخِ الإسلاميِّ.

فقَـالَ (أَحْمَـدُ): لَقـدْ أَحسنـتِ الاختيَـارَ ، فَوالدتُنا مُتَخصِّصةٌ بالأُمورِ التَّاريخيَّةِ ، وَهِيَ مُهتَمَّةٌ بِالأحدَاثِ التي جَرَتْ مَعَهُمْ ، وَفي كُلِّ

القِصَصِ وَالحِكَاياتِ الَّتي تَدُورُ حَولَهُمْ..

وَلكنَّ وَالِدَتَنا قَدْ خَرجتْ إلى زِيارَةِ صَديقَةٍ لخَالتي ، يقالُ لَها (أُمُّ جَميل) وَقد لا تَعودُ قَبلَ العشَاءِ ، وذلكَ لأنّ المَسافَةَ بَعِيدَةٌ..

بَعْدَ العَشاءِ ـ قَالَتْ (أَسماءُ) ـ: ومتَى سَأكتبُ المَوضوعَ.. وأَحفظهُ.. وَمَاذا سَأقولُ للمُدرِّسةِ غَداً؟

فَقالَ (أَحمدُ): فَما عَليكِ إلاّ البَحْث عَنْ كِتابٍ يَتحدَّثُ عن ذلكَ المَوْضُوعِ.

ولكِنْ أينَ ـ قَالَتْ (أَسماءُ) ـ يَكُون ذَلِكَ ؟ سَاعِدني يَا أَحْمَد.

وانطَلَقَا يَبحثانِ عَنْ كِتَابٍ من كُتُبِ مَكْتَبَةِ العَائِلة في الصَّالُون.

وَبعدَ جهدٍ طَوِيلٍ وَجَدا كِتاباً مُؤلَّفاً مِنْ (٨) مُجَلَّداتٍ يتحدَّثُ عَنِ الفِداءِ والتَّضحيةِ وَحبِّ الشَّهادَةِ..

أَخَذَ كلٌّ منهمَا مُجلَّداً وَراحَ يَبحثُ فِي الفَهْرَسِ العَامِّ.. واستَغرقَا في مسألةِ البَحثِ والتَّفتيشِ ، حتَّى نَسيا الوَقْتَ كيفَ يَمُرّ!!

وَقطعَ ابنُ خالتهمَا (سَعيدٌ) عليهما مَسألَةَ البَحْثِ.. واقترَحَ انتِظَارَ (أُمّ أَحمد) وَلو تَأخَّر الوقْتُ ، فهيَ صاحِبَةُ اختصاصٍ ومهتمَّةٌ في ذَلك.

وعندَما رُفِعَ الأَذانُ لِصَلاةِ المَغربِ ، انطَلَقَ (أحمدُ) وَ(سَعيدٌ) إلى مَسجدِ الحَيِّ ، وأَدَّيا الصَّلاةَ خَلفَ الإمامِ ، ثُمَّ عادا إلى البَيْتِ.

وما إِنْ طَرقَ أحمد بابَ البَيْتِ حَتَّى فُتِحَ مُباشَرَةً!

نَظَرَ (أَحْمَد) إلى ابن خَالَتِهِ (سَعيد) وَقالَ: ماذا حَدثَ؟ كيفَ تَطَوَّرَ الأَمْرُ إلى هذا الحَدِّ ؟ هل أَصبحَ البَابُ يُفْتَحُ وَحدَهُ دُونَ أَنْ يَقْتَرِبَ أَحَدٌ مِنْهُ ؟!

لا يا أَحْمَدُ ـ قالَها سَعيدٌ ـ وَلكِنَّ الذي يَقِفُ وَراءَ البَابِ هُوَ صاحِبُ حَاجَةٍ مُلِحَّة.. إِنَّها (أَسماء) تَنْتَظرُ قُدومَ وَالِدَتهَا ، فَما إِنْ قَرَعْنَا الجَرَسَ حَتَّى فَتَحَتْ (أسماءُ) مُباشرةً ، فَظننَّا أَنَّه فُتِحَ وَحدَهُ!

وَجلسُوا فِي الصَّالُون يَنتظرونَ مَجِيءَ خَالَتِهم وَوَالدتهِم ، بَينَما كَانَتْ (أَسماء) تَتَحرَّكُ يَمنَةً وَيسرَةً.. تَجلسُ على الكُرسيِّ دَقائِقَ.. ثُمَّ تُغادِرُه إلى مَكانٍ آخرَ ، وهٰكَذا.

وَبعدَ صَلاةِ العِشَاء جَاءَتْ (أُمَّ أَحمد) وَأُخْتُها (أُمّ سعيد).. وراحَتْ (أَسماءُ) تَسألُ ، وبِشَكْلٍ مُلِحّ عَنْ موضوعِ الوَظِيفَةِ..

فَقالَتْ (أمُّ أَحمد): أَلسنَا على مَوْعِدٍ مَعَ حِكَايَةٍ هذهِ اللَّيْلَة؟

وَلكِنْ يا أُمِّي ـ قَالَتْ (أَسماء) ـ وَمَا عَلاقَةُ الحِكايَةِ بِالفِدَاءِ والشَّجاعَةِ وحبِّ الشَّهادَةِ؟

قالَتْ (أُمُّ أَحمد): هَذِهِ مُهِمَّتِي.. ومَا عَلَيْكِ إلاَّ الاستِمَاعَ بعدَ قليلٍ ، وَتَسجيلَ الأُمورِ الرّئيسيَّةِ لِتكتُبي مَوضوعاً عن ذلكَ الأَمْرِ...

هَيَّا يا أسماءُ نَادِي الجَميعَ.. فَبعدَ دَقائقَ تَبتدئُ الحِكَايَةُ.

وَما هِيَ إلاّ دَقائِقُ حَتَّى اجتمَعُوا جَمِيعاً حَولَ

(أمّ أحمد) ، بينَما راحَتْ (سُعاد) تُقدِّمُ ضِيافَةَ الشَّاي المَمزُوجِ بِبَعضِ الأَعشابِ البَريَّةِ..

رَمزٌ من رُموزِ التَّضحيةِ والفِدَاءِ!!

وَبَاشرتْ (أُمُّ أَحمد) حكايتَهَا الجديدةَ قَائِلةً: حِكَايتُنَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ تَدورُ حَولَ أَحد صَحَابَةِ رَسولِ اللهِ ﷺ ، وَيُدعى (خُبَيْب بن عديّ) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فَهُوَ وَاحدٌ مِنْ أَنصارِ المَدينَةِ المُنوَّرةِ ، ومن الذينَ أَسلمُوا بَعدَ الهِجرَةِ مُباشَرةً.

شَرَّفهُ اللهُ بالاشتراكِ بِغَزْوةِ بَدرٍ ، حيثُ نَالَ معَ أَصحابهِ يَومئذٍ أَوْسمةً رائعةً ، مِنَها قَولُ النَّبيِّ ﷺ: «لَعلَّ اللهَ اطَّلعَ على أَهلِ بَدْرٍ فَقَالَ لَهُمْ: اعمَلوا ما شِئتُم فقدْ غَفرتُ لَكُمْ».

وَأَبْلَىٰ «خُبيبٌ» رَضِيَ اللهُ عَنهُ بَلاءً شَديداً ،

وَكـانَ مِـنْ القَتلَـى الـذيـنَ سَقطُـوا بِسَيْفِـهِ (الحَارِث بن عَامِر بن نَوفَل).

وَبعدَ انتهاءِ المَعركَةِ وَصلَ الخَبرُ إلى أولادِ الحَارثِ أنّ والدهُمْ قَدْ قَتَلَهُ (خُبيب) ، فأَقْسَمُوا باللاتِ والعُزَّىٰ ليثأَرُوا لِوالدهِم.

وَراحُوا يُراقِبُونَ تَحرّكاتِ (خُبَيْب).

حَتَّى إذَا مَا كَانتِ السَّنةُ الرَّابعةُ من الهجرَةِ النّبويّةِ ، أَراد الرّسولُ ﷺ أَنْ يتأكَّد من نَوايا قُريشٍ ، فاختَارَ من أَصحابهِ عَشرةَ رِجَالٍ ، وأَمَّر عَليهم (عَاصِمَ بنَ ثابتٍ) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، وكانَ من بينهِم (خبيب بن عَديّ).

وانطلقَ الشَّبابُ العشرةُ باتِّجاه مكَّة ، فلمَّا وَصَلُوا إلى منطقةٍ فيهَا مَاء تُدْعىٰ (الرَّجِيع) ، إذ خَرجَ إليهِم أَكثر من مِئةِ رَجُلٍ مُسلّحينَ.

فَقالَ أَميرهُمْ (عَاصِم): أمَّا أنا ، فَواللهِ لا أَنزِلُ فِي ذمَّةِ مُشْرِكٍ.

ثُمَّ رَفعَ يَديهِ إلى اللهِ وَقالَ: اللَّهُمَّ أَخبِرِ عَنَّا نَبيَّكَ المُصْطَفَى ﷺ.

ثُمَّ سَقَطَ (عاصم) مَعَ سَبعةٍ من أَصْدِقائِهِ شُهَداءَ فِي سَبِيْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

ونَادَوا البَاقِيْنَ ، وأَقْسَمُوا لَهم العُهودَ والأَيْمَانَ المُغلَّظةَ أَنَّهُمْ لن يمسُّوهُمْ بِسُوءٍ.

وبِالفِعْلِ استَسْلَمَ (خُبيب) وَصَاحِبَاهُ.. فَكَانَتِ البِدايَةُ هِيَ مَسألةَ الإخلافِ بِالوَعْدِ ، لذلكَ رَاحَ وَاحدٌ مِنَ الثَّلاثةِ يُدافعُ عَنْ نَفْسِهِ وَعن أصحابِهِ حتَّى سقَطَ شَهِيداً ، والتحقَ بالأصحابِ السَّبعةِ.

ولمْ يَبْقَ إلاّ (خُبيب بن عَديّ) وَ(زَيدُ بن الدّثنة) رَضيَ اللهُ عَنهمَا..

فَمَا كانَ مِنَ المُشركينَ إلاّ أَنْ قَيَّدُوهُمَا وَأحكَمُوا الوَثاقَ.... فَما هُوَ العَمَلُ؟!

لكنَّهُ الغَدرُ والخِيَانَةُ!

فَقادُوهُما إلى مكَّةَ ، ثُمَّ قَدَّمُوهُما للبَيعِ و.. ، فَباعُوهُما كَالعَبِيدِ...!!

ولمَّا وَصَلَ الخَبرُ إلى أولادِ الحَارِثِ.. هُرِعُوا إلى السُّوقِ ليدفَعُوا أَكبرَ ثَمنٍ لِيَحصلا على غَرِيْمِهِم (خُبيب بن عديّ) رضيَ اللهُ عَنْه.

وَبدأَ مُسلسلُ التَّعذيب والانتقَامِ ، ولكِنَّ (خُبَيباً) كانَ يعيشُ معَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فلا يَخافُ ولا يَجْزَعُ ، إنَّما يُسلّمُ أَمرَهُ لكلِّ ما يُريدُ اللهُ عزَّ وَجلَّ..

إنَّ (خُبيباً) عَلِمَ يَقيناً أَنَّ الدُّنيا لا تُساوِي عِندَ اللهِ جَناحَ بَعوضَةٍ ، وأنَّ الموتَ ليسَ إلاّ قَنْطَرةٌ تَحمِلنَا من دارِ العَملِ إلى دارِ الحِسَابِ..!!

وَبِالتَّالِي ، فَهو يعتقدُ أنَّ البَشَرَ جَميعاً لوِ اجتَمعُوا على إنسانٍ ، يُرِيْدُونَ إلحاقَ الضَّرَرِ بِهِ من زَاويةٍ ما ، فَلا يَسْتَطِيْعُونَ فِعلَ ذلكَ إلاّ إذا شَاءَ اللهُ ذَلِكَ..

وهَكَذا فِي مَسَائِلِ النَّفعِ أَيضاً ، قال الله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ ۖ فَلَا

تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٢ ـ ١٧٥].

وكانَ كَرَمُ اللهِ وَفضلُهُ عليهِ!!

وهكَذا كَانَ ، فَمَنِ اتَّقَى اللهَ سُبحانَهُ ، وَجَاهَدَ في سَبيلِ الوُصولِ إلى ما يُريدُ عَاشَ مُرتاحاً.

وَقدْ رَوَتْ إحدَى بَنَاتِ (الحَارِث) الذي أُسِرَ فِي دارِهِ.. رَوَتْ قائلةً:

واللهِ لقدْ رَأَيْتُهُ يَحملُ عنقودَ عِنَبٍ يَأكلُ مِنْهُ ، وَهُوَ مَوثُوقٌ فِي الحَديدِ ، واللهِ لا يُوجدُ بِمَكَّةَ المُكرَّمةِ عِنبٌ قَطّ!!

وَهَذا لَيسَ إلاّ رِزقٌ سَاقَهُ اللهُ إليهِ ، كَمَا قالَ تَعَالَى فِي حِكَايَةِ مَرْيَمَ وَزكريّا عَليهِمَا السَّلام:

﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

وَكَانَ الفِداءُ.. والثَّباتُ... والتَّضْحِيَةُ!!

وَأعلَمُوهُ بِالقَتْلِ بعدَ التَّعذيبِ، وسَاوَمُوهُ على العَوْدَةِ عن الدِّينِ الحَنيفِ، فَكانَ رَدّهُ رَدَّ الوَاثقِ الثَّابتِ.

ثُمَّ طلَبَ أَنْ يُصَلِّي رَكعتينِ، فَقَبِلوا ذٰلِكَ، فَصلَّى رَكعتينِ خَفِيفتينِ، ثُمَّ رَفعَ كَفَّيْهِ إلى اللهِ وَقال: اللَّهُمَّ أَحصِهم عَدَداً، واقْتُلهم بَدَداً.

ثُمَّ أَنشدَ قائِلاً:

وَلستُ أُبالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِماً

عَلى أيّ جَنبٍ كانَ فِي اللهِ مَصرعِي

وَذلكَ فِي ذَاتِ الإلٰهِ وإنْ يَشأْ

يُبارِك عَلى أَوصالِ شلوٍ مُمَزَّعِ

وَرُفِعَ على خَشَبَةِ الصَّلبِ ، واقتَرَبَ مِنهُ أَحدُ المُشْرِكينَ وَقالَ لَهُ:

أَتُحِبُّ أنَّ مُحمَّداً مَكانَكَ ، وَأَنْتَ سَليمٌ مُعَافىً فِي أَهْلِكَ؟

فَكَانَ جَوابُهُ: واللهِ ما أُحبُّ أَنِّي في أَهْلِي وَوَلدي ، مَعي عَافِيَةُ الدُّنيَا ونَعيمُهَا ، وَيُصابُ رَسولُ اللهِ بِشَوكةٍ!!

وَسَقَطَ (خُبيب بن عَديّ) شَهِيداً في سَبيلِ اللهِ تعالى.

وَتَلا (أحمد) قَولَ اللهِ تَعالى:

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾

[الأحزاب: ٢٣].

وَشَكرتْ (أَسماءُ) وَالدَتهَا عَلى هَذهِ الحِكَايَةِ

الجَمِيْلَةِ.. وَحَملتْ أَوراقَها ودَخلتْ غُرفَتها... بَيْنَما جَلسَ الجَمِيْعُ لِمُبادَلةِ أطْرَافِ الحَديثِ الاجتِمَاعِيِّ..

وَإِلَى لِقاءٍ جديدٍ في لَيْلَةٍ جَديدةٍ.. مَعَ حِكَايَةٍ جَدِيدَةٍ.

وآخر دَعْوانا أنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العالمِينَ